

البلاغة الصوتية في سورة القمر

The Voice Rhetoric in Surat Al - Qamar

د/تنقيب محمد*

مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر mohammed.tankeub@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/05/26

تاريخ القبول: 2021/05/19

تاريخ الوصول: 2019/07/08

ملخص

حديث العلماء عن الموائمة بين أقدار المعاني والألفاظ وأقدار الحالات والمستمعين جلي وكثير، ومتى لاحظنا صلة ما بين الجرس والإيقاع وبين حال المتكلم أو المخاطب، فلا ينبغي حينئذ أن نتردد في اعتبار هذا من البلاغة الصوتية. والحق أن القرآن الكريم ما جاء أسلوبه - على ما جاء عليه من انسجام واتساق و توازن يشبه الموسيقى - إلا ليحقق الغاية من التأثير واللفت والجذب لكل المستمعين والمخاطبين على اختلاف عقائدهم ومستوياتهم، لأن الناس جميعا يستهويهم جمال الإيقاع وحسن الأداء. الكلمات المفتاحية: البلاغة الصوتية، الإعجاز، الإيقاع، سورة القمر.

Summary :

The modern scholars on the compatibility between the fate of meanings and words and the fate of the cases and listeners clear and many, and when we notice the connection between the bell and the rhythm and between the speaker or the address, then we should not hesitate to consider this voice rhetoric.

And the truth is that the Holy Quran came to its style - the harmony, consistency and balance that is similar to music - only to achieve the purpose of the influence and attraction and attraction to all listeners and the different speakers of their beliefs and levels, because all people fascinated by the beauty of rhythm and good performance.

Keywords: phonetic rhetoric; miracle; rhythm; Surah Al-qamar.

1_مقدمة:

كان نزول القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم بلغته الصافية، و تراكيبه الباهر، موردا لكثير من الدراسات ومنهلا لكثير من العلماء الذين استهوتهم بلاغة القرآن الكريم، خاصة ما تعلق منها بالصوت والإيقاع، ذلك أن الكثير منهم يرى في ذلك موطن الإعجاز في القرآن الكريم. وهذا ما دفعني إلى اختيار موضوع البحث المعنون ب: البلاغة الصوتية في سورة القمر.

وقد جاء في القرآن الكريم آيات تدل على أنَّ الإعجاز في سماعه، وهو الأمر الذي دفع ببعض البلاغيين إلى القول بأنَّ إعجازه بما يقع في النفوس عند تلاوته وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة وما يلحق ذلك من الخشية.¹

ومن هنا انطلقت من إشكالية مفادها: ما علاقة الإعجاز بالشكل في القرآن سواء أكان ذلك في كلماته أو جملة أو آياته، أو على مستوى إيقاع السورة بأكملها، وما مدى ملائمة ذلك واتساقه وانسجامه مع المعاني التي تهدف إليها السورة.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع المنهج التحليلي الوصفي، للكشف عن أسرار حلاوة الأداء القرآني.

2_ البلاغة الصوتية عند القدماء والمحدثين:

البلاغة الصوتية من أهمِّ المواضيع التي اهتمَّ بها اللغويون و القراء قديماً، وأمَّا القدماء فمنهم: ابن جني، الجاحظ، الجرجاني، الرَّماني وغيرهم الذين قد تباينت آراءهم:

كانت رؤية الجاحظ لبلاغة الأصوات شاملة و إن لم تأت مرتبة، فله حديث عن الحروف و الألفاظ و العبارة، جاء موزعاً خلال موضوعات أدبية شتى. فعن الحروف نراه يسجِّل نظام اجتماعها في الكلمة العربية، فيذكر ما لا يجتمع منها بقوله: "فأما افتراق الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء و القاف و لا الطاء و لا الغين بتقدم و لا تأخير"²

وعن الألفاظ مفردة نراه يربط بين حسن اللفظ وسهولة مخارج حروفه وحلاوة أدائه الصوتي، و بين قبول القلب له، فيقول: "إنَّ المعنى إذا اكتسب لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً، ومنحه المتكلم دلاً متعشقا صار في قلبك أحلى ولصدرك أملئ"³. كما يشير الجاحظ إلى أهمية مشاكلة اللفظ للمعنى جرساً وإيجاءً، كي يعرب عن فحواه ويطابق مقتضاه.

ويبلغ الجاحظ قَمَّة ما ننشده في البلاغة الصوتية، إذ يقول: "و من حروف الكلام و أجزاء الشعر ما نراه سهلة لينة و رطبة مواتية، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأنَّ البيت بأسره كلمة واحدة"⁴. الملاحظ من أقوال الجاحظ ضرورة مطابقة الصوت و اللفظ منطقاً لحال المتكلمين.

ولقد مسَّ الرَّماني بلاغة الصوت من خلال حديثه عن سمة التلاؤم في القرآن الكريم، إذ يقول: "بعض الناس أشدَّ إحساساً بذلك و فطنة له من بعض، كما أن بعضهم أشدَّ إحساساً بتمييز الموزون في الشعر من المكسور"⁵، و التلاؤم يكون في التعديل بين الحروف، لسهولة الكلام على اللسان و حسنه على الأسماع.

أمَّا ابن جني فاهتم اهتماماً ملحوظاً بمحاكاة اللفظ للمعنى، و لم يكن اهتمامه بالمحاكاة لذاتها، وإنما لما يستتبع ذلك من قوة الدلالة، لأن اللفظ كلما كان أشبه بالمعنى و أكثر محاكاة له كان أدل عليه. يقول ابن جني بأنه كلما ازدادت العبارة شبهاً بالمعنى، كانت أدل عليه و أشهد بالغرض فيه.⁶

و هذا من صميم البلاغة الصوتية التي تلتقي مع موضوعات علم البيان في غرض أصيل هو قوَّة الدلالة

ووضوحها.

وقد تميز القاضي الجرجاني بملاحظته الارتباط القوي بين صفة الصوت من رقة أو جفوة و النغم و الجرس، وبين طبائع الأشخاص و نفسياتهم، يقول: "وقد كان القوم يختلفون في ذلك-أي تهذيب الشعر-وتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع... فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع"⁷.

ثم ربط الجرجاني بين صفة اللفظ و بين الظروف النفسية للشاعر في قوله: و ترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من العاشق المتيم، و قيمة ذلك الكلام ليس في ربطه بين رقة الشعر و بين طبائع الشعراء و ظروفهم النفسية فحسب، ولكن لأنه يكشف عن جوانب تلمس في بلاغة الصوت ، كالرقة في اللفظ.⁸

اهتم ابن سنان الخفاجي بالحروف و بالناحية الصوتية كمقدمة للحديث عن الفصاحة، لأنه يرى أن حاجة الناظر في علم الفصاحة و البلاغة لمعرفة مخارج الحروف و أوصافها أمراً ضرورياً لأن الكلام ينتظم منها. ولكنه لم يتوصل إلى البلاغة الصوتية، سوى أنه وضع شروطاً لفصاحة الكلمة المفردة، وذكر منها: أن تكون اللفظة من حروف متباعدة المخارج.⁹

كما شغل هذا العلم القدماء شغل أيضاً المحدثين، كأمثال الرافعي و عبد الله درّاز التي كانت آراءهم متقاربة نوعاً ما:

فالرافعي يقول: "و ليس يخفى أنّ مادة الصوت في مظهر الانفعال النفسي، إنّما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرج فيه مدّاً أو غنة أو لنا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه و تتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها ممّا هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى"¹⁰، مع أنّه يرى أنّ للغة بلاغة كبلاغة الصوت في لغة الموسيقى، إلّا أنه يعود ليرى أنّ في اللغة ذاتها بلاغة أصوات، فيقول: "إنّ تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان"¹¹.

فهناك إذن بلاغة صوتية تظهر عند تحرك اللسان العربي المطبوع بالكلام المعبر عن الفكرة، والتجربة، والإحساس و الشعور. فقد يتفاوت مقدار تلك البلاغة من لسان إلى آخر بحسب حظّ المتحدث من الطبع و التمكن و الموهبة.

وكان للرافعي في بحثه عن تلك الميزة في القرآن الكريم منهجا معينا حاول به كشف تميز القرآن الكريم في موسيقاه، و رأى أن القرآن الكريم هو المعجم التركيبي للغة العرب، و على هذا النحو يرى أن القرآن الكريم بجمال نظمه، و حلاوة إيقاعه، هو الذي صفى طباع البلغاء بعد الإسلام، و تولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم، مما يرجع إلى تساوق النظم و استواء التأليف.¹² وهو بهذا يحاول أن يخرج بتميز النظام الإيقاعي الصوتي في القرآن الكريم بأن حروفه مؤلفة على نحو خاص يولد إيقاعاً متميزاً.¹³ ويرى الرافعي أن للكلمة ثلاثة أصوات: صوت النفس، و صوت العقل، و صوت الحس، و يبدو أن كلامه عنها اتّصلها بالجرس و الإيقاع و التأليف على هذا الترتيب، و أنّ القرآن الكريم متميّز بنظمه و تأليفه.

وقد حاول الدكتور عبد الله درّاز تلمس هذه القوى الروحية-السارية في أسلوب القرآن الكريم-التي تتخذ مظهرها لا نملك من تفسيره سوى ما نلاحظه من الاتساق و الائتلاف و التوازن الصوتي الذي يأسر و يتمتع و يستحوز،يقول: "لو رتلت القرآن حق ترتيله ستجد اتساقا و ائتلافا يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى و الشعر، و ستجد شيئا آخر لا تجده في الموسيقى و لا في الشعر...فأنت من القرآن أبداً في لحن متنوع متجدد تنتقل فيه بين أسباب و أوتاد و فواصل على أوضاع مختلفة، بأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب"¹⁴.

من خلال القول نلاحظ أن الدكتور عبد الله يرى الجمال اللغوي في النظام الصوتي البديع الذي قسّمت فيه الحركة و السكون تقسيما منوعاً.

وهؤلاء العلماء وهم يحاولون تفسير وجه جمال الإيقاع، في الاعتراف بغرابة هذا الجمال، يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب: "فكل من يجيء على القرآن يجيء و هو على نفسه قادر على أن يكشف هذا السر المضمّر، الذي اشتمل عليه القرآن فأعجز الخلق أن يأتوا بمثله، ولكن ما إن يقف المرء تجاه القرآن حتى تأخذه الروعة منه و تستبد بمشاعر هذه القوى الروحية السارية فيه، فإذا هو شاعر يتملى من هذا الجمال و يسبح بحمد هذا الجلال، إن لم تستقم بحور الشعر و قوافيه على لسانه، فإنها تخلقت و استقامت في مشاعره ووجدانه"¹⁵.

وفي هذا إشارة الباحث إلى ذلك الجمال الإيقاعي القرآني وإلى تلك القوة الروحية الموجودة في القرآن المعجز. ومما يستنتج أنّ البلاغة الصوتية يمكن أن تحدّد جوانبها في الجرس و الإيحاء، ثم التأليف الذي يتناول الإيقاع.

3_ الإيقاع في سورة القمر (فاصلة الراء):

في عموم هذه السورة المباركة نجد نغم الراء مكرّراً فيها أكثر من مئة مرة فضلاً عن انتظامه سجعة في آيات السورة البالغة عددها خمسة و خمسون آية، وهي بهذا تشبه سورة القدر، والعصر، و الكوثر، وكذلك تشبه سورة الناس التي بنيت على نغم السين، و المنافقون التي بنيت على نغم النون، والفيل التي بنيت على نغم اللام¹⁶، وما يؤدّيه صوت الراء المتوسط الموحى بالشدة من إيقاع صوتي، يؤول كثرة ترداده إلى أن هذا الحرف المتكرر في طبيعة نطقه يحدث بضربات عديدة و متكررة من اللسان على اللثة. وأن هذا التكرار يوحي بواقعية تكرار العذاب على من كفر بالآيات المنزلة على الرسول صلى الله عليه وسلم. فهو سبحانه يعيد عليهم العذاب ويكرر المأساة ثانية على الكفرة المكذبين بعد أن سبق العذاب على من سبقتهم من الأديان السابقة. فضلاً عن تناسق هذا الإيقاع الصوتي مع سياق السورة المتمثل بحلقة "عذاب رهيبه سريعة لاهثة مكروبة، يشهدها المكذبون،... فيظل المشهد الأخير في السورة ذو جو آخر في ظلال أخرى، وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة"¹⁷.

وهو مشهد ذو "إيقاع هادئ يرسم للنعيم صورة شاملة في تعبير يلقي ظلال النعماء واليسر في لفظ ناعم مناسب ذي جرس يوحي بالسهولة والسلاسة فضلاً عما يوفره الإيقاع الصوتي المتمثل في تكرار صوت الراء في نهاية فواصل المشهد، الذي يفيد التكرار. فكأن المتقين في جنات ونعيم دائمين لا ينقطعان، وهذا هو النعيم الأبدي

والحسي والمعنوي المتمثل في المقطع الثاني¹⁸. إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ

عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: 54_55]

ولعلَّ القيمة الدلالية لتكرار صوت الراء تكمن في استعماله في عموم السورة، وانتقاله من نغم عاصف قوي إلى نغم هادئ حالم، إذ بدأت شديدة وعنيفة، وانتهت هادئة آمنة¹⁹ ولما كان حرف الراء أقوى الحروف في اللغة العربية، وأشدّها تماسكا فإن الوقوف عليه بالسكون يجعله في رخامة ولين²⁰ ولما كانت سجعة الراء ساكنة في نهاية الآيات فقد عمّ اللفظة المختومة بالراء المشددة السكون أيضا في خمس آيات هي:

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: 2] - ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ

﴿٣﴾﴾ [القمر: 3]

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر: 19]

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُكِّرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: 37]

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: 46]

اختيار سجعة الراء وتكريرها على مدار 55 آية، وشحن فونيم الراء (السجعة) بشحنات أسلوبيّة أعطت النص القرآني إيقاعا شديدا يلاءم جو السورة، الذي كان مربعا، ومفزعا يهزّ المشاعر هزا ويجرك في النفس الرعب والفزع والهلع والقلق .

4_ خاتمة:

ووقف البحث في الخاتمة على أهم النتائج التي توصلت إليها، نذكرها موجزة على النحو الآتي:

- من وجوه الإعجاز القرآني الموسيقى والإيقاع الداخلي.

- إنّ للصوت اللغوي أهمية في دراسة النص القرآني، من حيث أنّه البنية اللغوية الصغرى المكوّنة للكلمات والتراكيب، فهو عنصر أساس في الإعجاز القرآني.

- يتّسم الصوت القرآني بقوة التأثير انطلاقا من سهولة الأصوات حين ائتلافها وإحساس الأذن بعذوبتها حين الترتيل والتجويد.

- لقد وردت أصوات القرآن الكريم على درجة عالية جسّدها حسن انتقاء الأصوات ذات النغمات المنسجمة.

__فكما أنّ البلاغة غايتها التأثير في النفوس فكذلك الجرس الموسيقي.

__البلاغة الصوتية يمكن أن تحدد جوانبها في الجرس والإيقاع، ثمّ التأليف الذي يتناول الإيقاع.

الهوامش:

- ¹ ينظر: ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ط1، ص: 383.
- ² الجاحظ، البيان والتبيين، تح: فوزي عطوى، مطبعة بيروت، ج1، ص: 51.
- ³ المصدر نفسه، ص: 88.
- ⁴ د. محمود إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ط1، 1988، م، ص: 13.
- ⁵ الرومي، النكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1995، م، ص: 95.
- ⁶ ينظر: ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ج2، ص: 154.
- ⁷ ينظر: ابن جني، الوساطة، تعليق عبد المتعالى الصعيدي، ج1، ص: 13.
- ⁸ ينظر: محمود إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ص: 12.
- ⁹ ينظر: ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، مطبعة صبيح، 1969، م، ص: 54.
- ¹⁰ الرافي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التجارية، ط8، ص: 245.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص: 246.
- ¹² ينظر: المرجع السابق، ص: 244.
- ¹³ ينظر: المرجع نفسه، ص: 250.
- ¹⁴ عبد الله دّاز، الثّبا العظيم، مطبعة السعادة، ص: 95.
- ¹⁵ عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن، دراسة كاشفة لخصائص اللغة العربية ومعاييرها، مصر، دار الكتاب العربي، ط1، ج1، ص: 341.
- ¹⁶ ينظر: محمد تنقب، الدلالة الصوتية في الآيات القرآنية، سورة القمر نموذجاً - جامعة حسينية بن بوعلي، كلية الآداب واللغات، الشلف، ص: 61.
- ¹⁷ نظر: سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ص: 3425.
- ¹⁸ ينظر: عبد الواحد زيارة، الإيقاع في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية دلالية، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، 1995، م، ص: 158_159.
- ¹⁹ ينظر: عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن، ج1، ص: 382.
- ²⁰ ينظر: المرجع نفسه، ص: 383.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ج2.
2. ابن جني، الوساطة، تعليق عبد المتعالى الصعيدي، ج1.
3. ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، مطبعة صبيح، 1969، م.
4. ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ط1، ص: 1.
5. الجاحظ، البيان والتبيين، تح: فوزي عطوى، مطبعة بيروت، ج1.
6. الرافي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التجارية، ط8.
7. الرومي، النكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1995، م.

8. سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مج2.
9. عبد الكريم الخطيب، إعجاز القرآن، دراسة كاشفة لخصائص اللغة العربية ومعاييرها، مصر، دار الكتاب العربي، ط1، ج1.
10. عبد الواحد زيارة، الإيقاع في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية دلالية، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، 1995م.
11. محمد تنقب، الدلالة الصوتية في الآيات القرآنية _سورة القمر نموذجا_ جامعة حسينية بن بوعلي، كلية الآداب واللغات، الشلف.
12. محمود إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، ط1، 1988م.